

ال التربية الإسلامية - سبل الوصول وعلامات القبول - الدرس (٣١-٧٠) : التفكير في خلق السماوات والأرض

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٩-٢٠٢٠

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلوة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم أخرجا من ظلمات الجهل والوهم إلى أنوار المعرفة والعلم، ومن وحول الشهوات إلى جنات القربات.

التفكير في خلق السماوات والأرض :

أيها الأخوة الأكارم، مع موضوع جديد من موضوعات: "سبل الوصول وعلامات القبول"، هذا الموضوع هو: "التفكير في خلق السماوات والأرض"، الأصل في هذا الموضوع قوله تعالى:

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

[سورة آل عمران]

والسماءات والأرض مصطلح قرآنی،
أی الكون، والكون ما سوى الله:
﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَخُلُقَ الظِّلَّ وَالنَّهَارِ نَذِيرٌ لِّأُولَئِكَ
الْأَبْيَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً
وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي
خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ
هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾

نقف عند كلمة

﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ ﴾

الفعل الماضي يدل على حدثٍ وقع، والفعل الأمر يدل على حدثٍ لم يقع، يقع بعد الأمر، لكن الفعل الماضي يدل على الاستمرار،

﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

فالتفكير هو العبادة الأولى، لأن التفكير طريق معرفة الله، وأصل الدين معرفة الله، إن عرفت الأمر ثم عرفت الأمر تقنيات في طاعة الأمر، حينما يعرف المسلمون الأمر، ولم يعرفوا الأمر، يتصررون في طاعة الأمر، وهذه مشكلة العالم الإسلامي الأولى.



العقل أكبر عطاء إلهي وأعظم شيء في الكون :

أيها الأخوة، النقطة الدقيقة جداً أن الله سبحانه وتعالى أكرم الإنسان بهذا العقل، والعقل أعقد شيء في الكون، أي هذا العقل عاجزٌ عن فهم ذاته.



من الأبحاث العلمية أن في الدماغ مئة وأربعين مليار خلية سمراء استنادية لم تعرف وظيفتها بعد، وعلى القشرة أربعة عشر مليار خلية قشرية، فيها المحاكمة، وفيها التصور، وفيها القرار، وفيها الاستبطاط، وفيها التخيل. العقل البشري أعظم شيء في الكون، بل هو عاجزٌ عن فهم ذاته، بل إن العباقرة الكبار لم يستخدمو من إمكانات العقل البشري إلا الجزء اليسير.

أيها الأخوة، هذا العقل استشاري جاهز، تصور إنساناً باع بيته بثمنٍ فلكيٍّ، ولكن بالعملة الصعبة، وفي جيبه جهاز إلكتروني يكشف له العملة المزورة، يضع الورقة النقدية عليه، هناك لون على الشاشة، إذا كانت العملة أصلية – العملة معها معدن – يظهر لون معين، وإن كانت العملة مزورة يظهر لون آخر، وفي جيبه الثاني أرقام العملات المزورة، فباع بيته بثمنٍ باهظ، بعملة أجنبية، ولم يستخدم هذا الجهاز، ولم يقرأ أرقام العملات، ففوجئ بعد حين أن العملات كلها مزورة، إذاً الذنب ذنبه، أحياناً الإنسان يمشي مع التيار العريض، يتعامل كما يتعامل الناس، يفعل كما يفعلون، ينحرف كما ينحرفون، يغفل كما يغفلون، ومعه جهاز استشاري يعينه على معرفة الصواب، ومعه قرآن، معه منهج، يبين له الخطأ من الصواب، لم يستخدم عقله لمعرفة الخطأ من الصواب، ولم يستخدم الورقة التي في جيبه الأخرى. فلذلك العقل أكبر عطاء إلهي، لكن مع الأسف الشديد هذا العقل استخدم للدنيا فقط.

الحق ما جاء به النقل الصحيح وقبله العقل الصريح وارتاحت إليه الفطرة السليمة :

لكن بدئ ذي بدء: هناك دائرة تقاطع فيها أربعة خطوط، خط النقل الصحيح، وخط العقل الصريح، وخط الفطرة السليمة، وخط الواقع الموضوعي.

الحق ما جاء به الوحي من عند الله، أو ما جاء بالنقل الصحيح، إما قرآن، أو حديث صحيح، هذا الحق، ما جاء به النقل الصحيح، وقبله العقل الصريح، معنى الصريح أي العقل المجرد عن الهوى، ليس العقل التبريري.

حينما تأتي دولة قوية إلى بلد في الشرق الأوسط، وقتل المليون، وتعيق المليون، وتشرد الخمسة ملايين، وتهدم



الحق ما جاء به النقل الصحيح وقبله العقل الصريح

كل شيء، وتقول: جئنا من أجل الحرية والديمقراطية، هذا عقل تبريري ساقط.

لذلك الحق ما جاء به النقل الصحيح، وقبله العقل الصريح، غير التبريري، وارتاحت إليه الفطرة السليمة، وأيده الواقع الموضوعي، لأن الواقع خلق الله، ولأن النقل الصحيح وحي الله، ولأن العقل الصريح مقياسٌ أودعه الله فينا، ولأن الفطرة مقياسٌ نفسي، يكشف لك عن خطأك، فالحق في الأصل هو الله، أما الفكرة الصحيحة، الفكرة التي هي حق، ما جاءت عن طريق الوحي، وقبلها العقل، وارتاحت إليها الفطرة، وأيدها الواقع الموضوعي.

العقل طريق الإنسان لمعرفة الله عز وجل :

أيها الأخوة، الفكرة الدقيقة جداً أن هذا العقل أعطاك الله إياه كي تعرفه، فإذا عرفته سعدت، وسلمت في الدنيا الآخرة، فاستخدم الإنسان هذا العقل من أجل دنياه فقط، فلذلك لابد من تقديم مثل: الآن هناك حواسيب معقدة جداً، وغالبية جداً، قد يصل ثمنها إلى خمسين مليوناً، هذا الحاسوب تضع عليه قطرة من الدم، يعطيك سبعاً وعشرين تحليلاً فوريًا، فلو أن إنساناً اشتري هذا الحاسوب بخمسين مليوناً، واستخدمه كطاولة، ألا تحقره بهذه الطريقة؟ طاولة بهذا الحجم، وهو بهذا الحجم، حاسوب لتحليل الدم، كل قطرة دم تعطي سبعاً وعشرين تحليلاً فوريًا، وإذا كان هناك مئة شخص ينتظرون، وكل إنسان يدفع خمسة آلاف، أو عشرة آلاف

هذا العقل أو هذا الحاسوب، يقدم أرباحاً مذهلة فلكية، ثمنه خمسون مليوناً، تستخدمه كطاولة!

شيء آخر: ورقة على الطاولة، طويلة، بيضاء، هي شك بآلف مليون، لكنها مقلوبة على ظهرها، فظنها صاحبها



أودع الله العقل فينا كي نعرفه

التفكير في خلق السموات والأرض

ورقة عادية، فكتب عليها بعض الحسابات، ثم مرقها في المهملات، ثم اكتشف بعد حين أن هذه الورقة هي شك بـألف مليون دولار، كم يتالم؟.

هذا العقل أودعه الله فينا كي نعرفه، فإذا عرفناه سلمنا وسعدنا في الدنيا والآخرة، أما الإنجازات التي قدمها العقل شيء لا يصدق، تركب طائرة، على ارتفاع أربعين أو خمسين ألف قدم، المقاعد وثيرة، تغدو بعد حين سريراً كاملاً، الجو مكيف، يقدم لك الطعام، والشراب، أمامك قنوات، أمامك صحف ومجلات، وأنت على ارتفاع أربعين ألف قدم، والسرعة ألف كيلو متر في الساعة هذه الطائرة من إنجاز العقل البشري.

الإنجازات التي نعيشها الآن هي من إنتاج العقل :

أخواننا الكرام، هناك شيء دقيق: الحاسوب رفع الدقة من واحد ل مليون، خفض الجهد من مليون واحد، تطور من درجة إلى (rose rise)، هبط سعره من (إلى درجة، أي بالضغط على بعض الأزرار يقدم لك معلومات تفوق حد الخيال، أنا عندي شريحة، صدقوا حجمها أقل من أربعة ملي، تتسع لأربعين ألف صفحة، الآن هناك انجازات، وهذا شيء لا يصدق.

الآن عندي مجلة ألمانية، فيها صورة للأرض من القمر، الأرض كما هي كرة، عليها مربع صغير جداً، المربع كُبر هناك صورة ثانية، فإذا هو أمريكا الشمالية، على هذه الخارطة مربع صغير جداً، كُبر في الصورة الثالثة، فإذا هو فلوريدا، على هذه الصورة مربع صغير جداً كُبر في الصورة الرابعة، فإذا هو ساحل في فلوريدا، عليه مربع صغير، كُبر في الصورة الخامسة، فإذا هو ميناء، وحقول، ومرج، وعليه نقطة، النقطة كُبرت في الصورة السادسة، فإذا إنسان مستلق على قماش، ومعه قصة، يمكن أن تقرأ عنوانها، وهناك صحن تقاح على جانبه، هذه الصورة من القمر، وأحياناً يكتبون: ممنوع التصوير.

هذا العقل البشري الذي صنع هذه الآلات، الآن هناك آلات تريح من سبعة كيلو متر نقطة تتحرك، قبل ثمانية كيلو متر ترى الشخص كما هو، لكن سرع هذه الآلة نصف مليون، هذا العقل البشري قدم أشياء مذهلة.

مثلاً المحمول، إنسان معه قطعة في جيبيه، يتصل بأمريكا، بأستراليا، بأي صغيراً من إمكاناته



إنسان في العالم، كأنه أمامك، ما هذا الإنجاز؟.

أخواننا الكرام، أشعة الليزر، تقيس المسافة بين الأرض والقمر بالمليئترات، تذهب أشعة وتعود، يستخدم المهندسون هذا الجهاز، يقف بمكان يرسل أشعة، تذهب وتعود يقول لك: ثلاثة وأربعون متراً وخمسة وثلاثون مليمتر بالضبط، الإنجازات التي ترونها بأعينكم، ركبت قطار بفرنسا، سرعته تقدر بثلاثين كيلو متر، قطار من مركز باريس إلى مركز ليون.

إذاً العقل البشري عندما وظف في شؤون الدنيا قدّم إنجازات مذهلة، وهذه الإنجازات هي واحد بالمليار من طاقاته، وقد أودع الله فيك العقل، كي تسلم، وتسعد في الدنيا والآخرة، فاستخدمه الإنسان من أجل مصالحه فقط.

أيها الأخوة، الآن، أو قدّيماً، إرسال رسالة من المدينة إلى بغداد يحتاج إلى شهرين، الآن استخدم الفاكس، تكتب الفاكس إلى أقصى مكان في العالم، إلى ألاسكا، بثانية واحدة تكون الرسالة هناك. أنا أأسف أحياناً معي لاب توب صغير، فيه موسوعة فيها عشرة آلاف كتاب، مئتا كتاب تفسير، كتب الحديث كلها، كتب الفقه كلها، المعاجم كلها، كل الكتب في هذا الكمبيوتر الصغير، أنت تساور معك عشرة آلاف كتاب، والبحث يتم بدقة، والنصوص مضبوطة بالشكل. الإنجازات التي نعيشها الآن العقل لا يصدقها، هي من إنتاج العقل، أما أنا والله حينما أرى إنجازاً عظيماً أصبح الله على هذا الإنجاز، لماذا؟ القرود صنعوا طائرة؟ يقول لك: الإنسان أصله قرد، مع أنني أنا آمنت بهذه النظرية لكن معكوسه، إنه كان إنساناً صار قرداً الآن، القرود صنعوا طائرة؟ ركبوا البحر؟ ذهبوا إلى القمر؟ غاصوا أعماق البحار؟ الآن هناك سفن أو غواصات تصل إلى خليج مريانا في المحيط الهادئ، عمق هذا الخليج – أعمق نقطة في البحر – اثنا عشر كيلو متر، إنسان يركب مركبة، مصفحة، وفيها شاشات، وفيها نوافذ، وفيها إضاءة، شديدة، يرى قاع البحر.

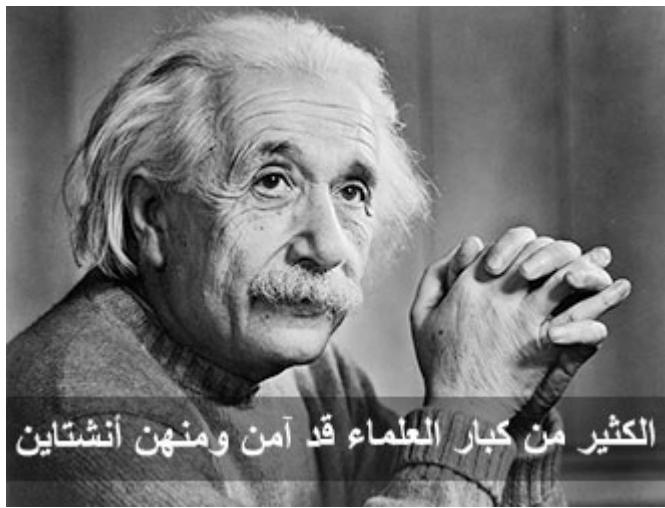
الإنسان يستطيع أن يصل بالعقل إلى أعلى درجة في الدنيا والآخرة :

أيها الأخوة، طبعاً الحديث عن المنجزات لا ينتهي، أما أنا والله هذه الإنجازات تزيدني تعظيمـاً لله، لأن الإنسان أعطاه الله عقلاً، تركب طائرة، ركبت رحلة من باريس إلى سان باولو، ثلاثة عشرة ساعة بالفضاء، أربعينـة راكب، يأكلون، ويشربون، وينامون، فوق في الجو، فهناك تطور شديد، أنت نفتح القرآن الكريم، تقرأ قوله تعالى:

﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمَيرَ لِتَرْكِبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾

[سورة النحل]

لأنه كلام الله.



لذلك أيها الأخوة، أنت بالإمكان أن تصل بهذا العقل إلى أعلى درجة في الدنيا والآخرة، لو فكرت في خلق السماوات والأرض، وعرفت الله، إنك إن عرفت الله عرفت كل شيء، وإن فانتك معرفة الله فانتك كل شيء، والله أحب إليك من كل شيء.

لكن قد يقول أحدهم: هؤلاء العلماء الكبار لم يؤمنوا؟ والجواب الدقيق:

بعضهم آمن، أنسٌثاين آمن، ماذا قال؟ هناك كتاب أحافظ به، يقول هذا العالم الذي جاء بالنظرية النسبية: كل إنسان لا يرى من هذا الكون قوًّة، هي أقوى ما تكون، علیمةٌ هي أعلم ما تكون، حكيمٌ هي أحكم ما تكون، رحيمةٌ هي أرحم ما تكون، هو إنسانٌ حيٌ، ولكنه ميت، هذا كلام أنسٌثاين.

دارون لم يؤمن قال: لا، هذه المخلوقات تطورت، من مخلوقات وحيدة الخلية إلى الإنسان، وجاء بهذه النظرية، والآن ثبت بالدليل القطعي من معظم العلماء الغربيين أنها باطلة، لأنه ادعى أن الفأرة تأتي من الخرق البالية، وأن الضفدع يأتي من الولح، وأن الدود يأتي من اللحم المتفسخ، إن هذه مادة أصبحت كائناً حياً، والعلم طبعاً ثبت بطلانها، وسخر منها، لكن أقوى دليل على بطلان هذه النظرية، أنه حينما يتوجه أن هناك تطوراً بالمخلوقات إذاً لابد من مخلوق مرحي، بالمستحاثات وجدوا أن هناك أحافير لحيوانات عاشت قبل خمسة وثلاثين مليون عام كما هي الآن تماماً، أحافير في المستحاثات، فيها صور حيوانات، عاشت قبل خمسة وثلاثين مليون عام، وهذه الحيوانات أو الطيور كما هي الآن تماماً، هذه النظرية باطلة سقطت، ومع الأسف الشديد هناك بعض الدول الإسلامية تدرس هذه النظرية، وهي مرحة بالنسبة للغرب لأنها تؤكد أنه لا يوجد خالق.

لذلك الطغاة حينما يبيدون الشعوب يرتحون بهذه النظرية، أما حينما تعلم أن هناك إلهًا سيحاسبك، تعد للآلاف قبل أن تؤذني مخلوقاً.

الإعجاز العلمي في القرآن الكريم :

أيها الأخوة، وكالة الفضاء ناسا، عرضت صورة بموقعها الإلكتروني لوردة، لا تشک للحظة واحدة أنها وردة جورية، وردة جميلة جداً، بأوراقها الحمراء الداكنة، بوريقاتها الخضراء الزاهية، بكأسها الأزرق في الوسط، مكتوب تحت هذه الصورة، صورة انفجارٍ لنجمٍ اسمه عين القطب، وبعد

عما ثلاثة آلاف سنة ضوئية، نحن اتفقنا قبل حين أن أربع سنوات ضوئية لو أن هناك طريقاً إلى هذا النجم، لاحتمنا إلى خمسين مليون عام لنصل إليه، هذا النجم بعده عما ثلاثة آلاف سنة ضوئية، تفتح القرآن يقول الله عز وجل:

﴿فَإِذَا انشَقَّ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالْدَهَانِ * فَبِأَيِّ الَّاءِ رَبَّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

[سورة الرحمن]

يقول رائد الفضاء بعد أن تجاوز طبقة الهواء البالغة خمسة وستين ألف كيلومتر قال: لقد أصبحنا عمياً، لأنه انعدام انتشار الضوء، انتشار الضوء ظاهرة فيزيائية في الضوء لابد من شرحها في وقت آخر إن شاء الله، فقال: لقد أصبحنا عمياً، تفتح القرآن الكريم:

فَإِذَا انشَقَّ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالْدَهَانِ



﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُوا فِيهِ يَعْرُجُونَ * لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرْتُ أَبْصَارُنَا بِلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ﴾

[سورة الحجر]

هذا القرآن من عند خالق الأكون، والدليل الإعجاز العلمي، مثلاً بيننا وبين أقرب نجم ملتهب أربع سنوات ضوئية، يقطعها الضوء في مسافة قليلة جداً، هي أربع سنوات ضوئية، لكن لو ترجمنا هذا المصطلح إلى كيلو مترات، يقطع الضوء في الثانية ثلاثة ألف كيلو متر، في الدقيقة ضرب ستين، في الساعة ضرب ستين، في اليوم ضرب أربع وعشرين، في العام ضرب ثلاثة وخمسة وستين، بأربعة أعوام ضرب أربعة، هذا الرقم لو معك مركبة، وسرعتك مئة، قسم على مئة، كم ساعة تريده؟ قسم على أربع وعشرين، كم يوم؟ قسم على ثلاثة وخمسة وستين، كم سنة؟ من أجل أن تصلك إلى أقرب نجم ملتهب تحتاج إلى خمسين مليون عام، هذا النجم أربع سنوات، نجم القطب أربع آلاف سنة، المرأة المسلسلة مليونا سنة ضوئية، نجم حيث أربع وعشرين مليار سنة ضوئية، هذا الكون يدل على الله، الشمس أكبر من الأرض بـ مليون وثلاثمائة ألف مرة، أي يدخل إلى جوف الشمس مليون وثلاثمائة ألف أرض، بينهما مئة وستة وخمسون مليون كيلو متر، وفي برج العقرب نجم اسمه قلب العقرب، يتسع للأرض والشمس مع المسافة بينهما، هذا الإله العظيم يعصى؟ ألا ترجي جنته؟ ألا تخشى ناره؟.

من لم يُعمل فكره في هذا الكون العظيم يبقى غافلاً عن الله عز وجل :

أيها الأخوة، العين، آلات التصوير هذه احترافية، ورقمية، أي ديجيتال، هذه الآلة فيها بالمليметр المربع عشرة آلاف مستقبل ضوئي، أما بالعين البشرية بالمليметр المربع من الشبكية مئة مليون مستقبل ضوئي، وماء العين فيه مادة مضادة للتجمد، حتى إذا كنت مكان بارد لا تجمد العين. الله فتح بين الأذنين ثقباً، كشفه عالم فرنسي اسمه بوتال، هذا الثقب يلغى الدورة الدموية الصغرى، لأن في البطن لا يوجد هواء ولا تنفس، هناك رئتان لكن معطلتين، عند الولادة تأتي جلطة، فتغلق هذا الثقب، يد من؟.

وأنت نائم غارق في النوم، يتجمع اللعاب في فمك، تذهب رسالة من الفم إلى الدماغ أن اللعاب ازداد، يأتي أمر من الدماغ، يأمر لسان المزمار بإغلاق مجرى الهواء، وفتح مجرى المعدة، فتبليع ريقك، وأنت نائم.

يُضغط قسم من جسمك تحت الهيكل العظمي، هناك مراكز ضغط تبلغ الدماغ أن ضغطنا، يأتي أمر من الدماغ فتقلب مرة على اليمين، ومرة على اليسار، حتى لا تقع من على السرير.

﴿وَنَقْبِلُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشَّمَاءِ﴾

[سورة الكهف الآية: ١٨]

الطفل الآن يلد، لو لا أنه مزود بآلية معقدة جداً تأتيه مع الولادة من دون تعلم هي منعكس المص ما كان هذا الدرس، ولا كان هناك دمشق، ولا سوريا، ولا إنسان في الأرض، الآن الطفل يلد فوراً يمص ثدي أمه.

أيها الأخوة، المشكلة أن الإنسان إذا لم يُعمل فكره في هذا الكون العظيم يبقى غافلاً عن الله عز وجل، إنجازات العقل البشري تقام لك أموالاً طائلة، أو منصباً رفيعاً، أو متعة ساقطة بالغة، والأنبياء استخدمو عقولهم، ثم جاءهم الوحي في معرفة الله، فسعدوا، وأسعدوا، وسلموا.



الدنيا لها سقف، أما الآخرة ليس لها سقف

شيء ثان: الدنيا لها سقف، أي بقدر ما كنت غنياً، على كم سرير ت تمام؟ كم ثوباً ترتدي؟ تجد الدنيا لها سقف، بقدر ما اغتنيت هناك سقف، أما الآخرة ليس لها سقف، فلو أعملت عقلك في الدنيا، هذه الدنيا تعطيك مالاً، أو مكانة، أو شيئاً آخر، وهذه الأشياء محدودة. لذلك المؤمن استخدم عقله لمعرفة الله، فسلم وسعد في الدنيا والآخرة.

آخر حديث يقول عليه الصلاة والسلام:

((بادِرُوا بالأعمال سبعاً: هل تُنْظَرون إِلَّا فَقْرَا مُسْيَا، أَوْ غَنِيًّا مُطْغِيَا، أَوْ مَرَضاً مُفْسِداً، أَوْ هَرَماً مُفْنِداً، أَوْ موتاً مُجْهِزاً، وَالدِّجَالُ شَرٌّ غَايْبٌ يُنْتَظَرُ، وَالسَّاعَةُ أَذْهَى وَأَمْرٌ))

[أخرجه الترمذى والنسانى عن أبي هريرة]

والحمد لله رب العالمين